الكافر...

الحبيب علي زين العابدين الجفري

كثر الحديث هذه الأيام عن كلمة «كافر»، وتعرض هذا المصطلح لعبثية فوضى الخطاب المعاصر، وجنح بعض الناس في التعامل مع هذه الكلمة بأنماط متعددة من التطرّف.. ففريق أفرط في إطلاقها على كل من خالف فهمه للدين من أبناء دينه فضلاً عن غيرهم.. بل أطلقها بعض العابثين على من يخالف مواقفه السياسية.

مع أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حذّر منه فيما رواه البخاري ومسلم: (أيما رجل قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما)، وزاد مسلم في رواية أخرى: (إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه).

ومنهم من زاد على ذلك بأن جعل من لوازمها القتال والتعدي، وكأن الدين يقوم على الإكراه أو أن مجرد الكفر يبيح الدم والعرض والمال، وهذا باطل مخالف لقوله تعالى: {لا إكراهَ في الدِّينِ قد تَبيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ}، وقد أخطأ من قال بأن الآية منسوخة لأنها نزلت في المدينة المنورة بعد الإذن بقتال الكفار المعتدين.

وفريق آخر فرّط ورفض الاعتراف بهذه الكلمة بالرغم من كونها ثابتة بنص القرآن، ولعله يعيش حالة ردة فعل تجاه الفريق الأول مع عدم تمييزه بين الكفر وتبرير القتال.

والمعنى اللغوي للكُفر هو الستر والتغطية، ولهذا يُسمى المزارع كافراً لأنه يستر البذور ويغطيها بالتراب حين يدفنها.. كما يُسمى الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته ويُغطيها..

ولهذا أيضاً يُسمى الجحود كُفراً لأن صاحبه يستر الحقيقة ويغطيها بإنكاره لها، ويسمى «القار» (الزفت) التي تُطلى به السفن كُفراً، وكذلك يُسمى التراب لأنه يغطي الأشياء حين يدفنها، وكذلك الأرض البعيدة لأنها لا تُرى والقرية الصغيرة لأنها لا تكاد تُذكر.

وهذا اللفظ انتقل إلى اللغة الإنجليزية في التعبير عن الغطاء: «Cover».

وهناك معنى شرعي للكفر اختلط فهم الناس له بالعُرف المعتاد في تناول الكلمة وهو ما ينبغي توضيحه وإزالة اللبس المتعلق به وتبيين ما يترتب عليه من حكم دنيوي وحكم أُخروي وهو على النحو الآتي:

- هناك فرق بين الدلالة الشرعية للكلمة والدلالة العُرفية.

فالمجتمع المصري على سبيل المثال يتعامل معها عرفاً على أنها سُبّة يُشتم بها من اشتد جحوده وظلمه، ولهذا تجد في اللهجة المصرية عبارات مثل: «دول عالم كَفَرة» «يا كفرة» «انت هتخليني أكفر»، وبالطبع السلامة تقتضي تجنّبها.

والدلالة العرفية لها اعتبار في الشرع يدعو إلى الانتباه لحساسيتها، ولذلك قَبِل أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) من قبيلة تَغْلب طلبهم حين اشترطوا عليه تسمية الجزية بالصدقة لأن دلالة الجزية حملت عندهم معنى الإهانة لمكانتهم بين قبائل العرب.

- أما الدلالة الشرعية فهي على أقسام:

١- كفر دون كفر: وهو يُطلق للتغليظ ومرتكبه لا يخرج عن الإسلام ولكنه يرتكب نوعا من الجحود في المعاملة ومثاله قول النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم): (اثنتان في الناس هما بهم كفر، الطعن في النسب والنياحة على الميت)، فاتهام الناس في أنسابها والنياحة على الميت من المعاصي المتعلقة بالجحود ولكن ليست مخرجة من الإسلام، ومرتكبها مسلم مذنب عاص.

٢- كافر منافق: وهو الذي يتظاهر بالإسلام ويُبطّن الكفر وحكمه في الدنيا حكم المسلم لأن ما في القلوب غيب والأحكام الشرعية في الدنيا تُطبّق على الظاهر والأصل في التعامل فيها مع الإنسان على أساس حسن الظن وافتراض الصدق فيه ما لم يثبت خلاف ذلك، وقد كان المنافقون يُصلّون خلف النبي وهو يعرفهم فلا يمنعهم، لأن التفتيش عن النوايا ليس من مهمتنا.

وإنما وردت الأحاديث التي تذكر صفات النفاق لتحذيرنا من الوقوع فيها حتى لا يتسلل داء النفاق إلى قلوبنا بسببها والعياذ بالله، ومن ذلك قول النبي الكريم: (آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أُؤتمن خان)، فمن تكرر وقوعه في ذلك فقد اتصف بصفات النفاق.

أما الحكم الأخروي فهو أنه كافر: {إنَّ المنافقين في الدَّرْكِ الأسفلِ مِن النَّارِ ولَنْ تَجِدَ لهم نصيراً}.

٣- كافر بجهالة: وهو حال أكثر أهل الأرض الذين لم يصلهم الإسلام على نحو واضح يُقنع العقل ويطمئن له القلب ويسلم من التشويش.

وحكمه في الدنيا أنه كافر بمعنى أنه لا تنطبق عليه أحكام المسلم في النكاح والميراث والصلاة عليه عند موته وغير ذلك من أحكام الجنائز، ولا يُخاطب بالالتزام بالأحكام الشرعية التي يلتزم بها المسلم كالصلاة والزكاة والحجاب.

وأما الحكم الأُخروي: فالذي يظهر أنه يدخل في حكم أهل الفترة الذي يتبيّن من قول الله عز وجل: {وما كُنَّا مُعذِّبين حتى نبعَثَ رسولاً}، وهذا واضح الانسجام مع العدالة الإلهية والرحمة الربانية.

٤- كافر معاند: وهو من بلغته الرسالة دون تشويش قولي أو عملي يحجب عنه وضوح صدقها ومع ذلك أصر على الكفر بها وإنكارها جحوداً بالرغم مما استقر في عقله وقلبه من الاقتناع بصحتها والتصديق بها كما في قول الحق سبحانه: {وجَحَدُوا بها واستَيْقَنَتْها أنفسُهم ظلماً وعلواً}.

وهذا يضاف في حقه إلى الحكم الدنيوي السابق الحكم الأخروي بأنه من أهل النار إن مات على حالته تلك كما أخبر القرآن الكريم: {والذين كفرُوا وكذَّبُوا بآياتِنا أولئك أصحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالدون}.

وجميع هذه الأنواع لا يجوز الاعتداء عليهم ولا قتالهم بسبب كفرهم ولا إرغامهم على الإسلام لأن الدين لا يكون بالإكراه وإنما بالاختيار، فالإيمان قناعة عقلية واعتقاد قلبي، والله تعالى يقول:

{لا إكراهَ في الدِّين}

{أفأنتَ تُكرهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين}

هناك معنى شرعي للكفر اختلط فهم الناس له بالعُرف المعتاد في تناول الكلمة وهو ما ينبغي توضيحه وإزالة اللبس المتعلق به وتبيين ما يترتب عليه من حكم دنيوي وحكم أُخروي

{وقُلِ الحقُّ مِن ربِّكم فمَن شاءَ فَليؤمنْ ومَن شاءَ فَليكفُرْ..}

{مَن كَفَرَ فعليهِ كُفرهُ ومَن عمِلَ صالحاً فَلأنفسِهم يَمْهَدون}

{ومَن كَفَرَ فلا يَحزُنْكَ كُفرُهُ إلينا مرجعُهم فنُنَبِّئُهم بما عملُوا إنّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ}.

٥- كافر حربي: وهو الذي يجمع مع صفة الكفر صفة الاعتداء بالقتال إما بمباشرته أو بالتحريض الحقيقي عليه أو بالتخطيط الثابت له أو بمنع الناس حقهم في اختيار الإيمان والإصرار على إجبارهم على الكفر وهؤلاء يضاف إلى الحكم بكفرهم دنيوياً، وأخروياً إن ماتوا على ما هم عليه، الحكم بجهادهم بالقتال المباشر لمن اعتدى، وبالتخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال في حق من يحرض أو يخطط أو يمنع الناس حقهم في حرية الاختيار، وعليه تُحمل جميع آيات القتال التي يُذكر فيها الكفر بدليل أن النبي الكريم وصحبه البررة تعاملوا مع من لم يكن هذا حاله بغير القتال وقد توفي الحبيب المصطفى ودرعه مرهونة عند يهودي.

وبهذا يتضح أن مجرد الكفر ليس سببا للقتال ولا مبررا له.

هذا هو مفهوم كلمة «كافر» لغة وشرعاً..

وبقي تأكيد خطورة الفوضى الحاصلة في تصدُّر غير المؤهلين لاعتلاء المنابر والتدريس في المساجد وعقد الندوات والظهور في الفضائيات مما جعل كل من هبَّ ودبَّ يستشهد بآيات القرآن ونصوص السنة في نشر الفتنة والكراهية واستباحة الدماء..

{وإذا تَولَّى سَعَى في الأرضِ ليُفسدَ فيها ويُهلكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لا يُحبُّ الفسادَ * وإذا قِيلَ لهُ اتَّقِ اللهَ أخَذَتْهُ العزَّةُ بالإثمِ فحسْبُهُ جهنّمُ ولَبِئْسَ المِهادُ}.

اللهم اجعل نفوسنا مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة يا كريم.

إجبار التهاميين على الحراك المسلح

محمد عمر الضرير

غضبٌ تهاميٌ مكبوتٌ يأبى ذوو السلطة والنفوذ من الدولة والأحزاب والقبيلة(مدنيون وعسكريون) إلا تفجيره وفق المسار المثخن بالجراح والآلام وزعزعة الاستقرار، كما مر في سيناريو قضيتي الجنوب وصعدة، وكأن من بيدهم الاسهام والتجاوب مع المطالب الحقوقية المشروعة لأبناء تهامة لا يريدون حل القضية إطلاقا، ومن الأفضل –لديهم- أن يبقى الظلم والقهر والإذلال لتهامة الأرض والإنسان، ولعل السر يكمن في تضرر مصالحهم جميعا إذ من النادر قلة تورط أصحاب النفوذ في النهب والفساد بها. ومن ثم لا بد –لدى البعض- أن ترتقي القضية من مطالب حقوقية واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، إلى إقلاق أمني وسياسي حتى يلتفت من تبقى من الشرفاء في الدولة إلى مطالب من يمثلون سكانيا 10% من سكان اليمن، ويرفد إقليمهم الخيِّر الدولة بنسبة لا يستهان بها للخزينة العامة.

هذه المرة أكتب مغضبا جدا، فقد حذرت مرارا وتكرارا ومن مدة ليست بالقصيرة، منبها ولاة الأمر وخاصة مع تشكيل لجنة الحوار الوطني من الاهتمام بهذا الإقليم الحيوي(كما في مقال: عار يا لجنة الحوار)، والالتفات الجاد إلى مطالب أهله المشروعة ورفع الظلم والتهميش عن أرضه وناسه، ساردا الكثير من المعطيات المنذرة بتحول غضبه إلى حراك، فللصبر حدود في قلوب الأحرار، ومن ذا يرتضي العيش وأرضه تسلب وأهله يذلون ويهمشون في شتى مجالات الحقوق الوطنية والإنسانية عموما، بل نبهت إلى أن التمادي في التجاهل ينذر بتشكل حراك مسلح، مما سيزيد من مشاكل الدولة الضائقة بمشاكلها، وإضافة حراك في غرب اليمن بما عليه إقليمها الغربي من أهمية ومصالح كبيرة سيهز من دعامة الأمن المؤثرة بطبيعة الحال على الاستقرار المنشود المسهم بدوره في تقدم الوطن ونمائه.

لا أدري هل طيبة التهامي الكبيرة ورقة قلبه طمأنت مخلصي الدولة، أم أن هنالك حسابات خاطئة أو سوء تقدير أو ضعف تقارير أضعفت تحركهم، أم أن الخوف من مواجهة الغيلان والحيتان المتضررة مصالحهم في نشر العدالة والمواطنة المتساوية واسترداد الحقوق لأبناء تهامة أربكت توجهم.

وأي كان مما ذكرت أو جهلت علمه: فلا مبرر على الاطلاق لهذا التهميش المنهج القديم قصدا والمتجدد استمراءً للمطالب الانسانية في تهامة، ولست هنا بصدد سوق تاريخ التهميش والتجاهل والإقصاء لحقوق أبناء تهامة فقد هرمنا ومعنا الكثيرون من ترديده، وما خفي مما لم يقل أعظم، ولكن أن يستمر رغم شرح الكثير من المعطيات والمستجدات بعد ثورة 11 فبراير، يدعو للاستغراب، ويطرح التساؤل: هل تهميش القضية التهامية دعوة صريحة لانتهاج الكفاح المسلح لاسترداد الحقوق؟

خاصة وقد عُرف عن أبناء تهامة سلميتهم وتمدنهم ونبذهم لكل صور العنف والإرهاب.

طرحت التساؤل أعلاه وقد حضرني ما يستغربه أبسط عقل سليم، من إيلاء بعض الأقليات أو الجماعات أو القضايا ذلك الاهتمام المفرط، ففي جانب الحوار الوطني مثلا، تدرج بعض قيادات الحوثي بلجنة الحوار وتعطى جماعتهم ما يقرب من 40 مقعدا، فأين هم من 3 مليون تهامي وبإقليم مهم للخزينة كتهامة، وهكذا بالنظر إلى كل القضايا المولاة اهتماما من الدولة لن تجد أيا منها أقدم واشد مظالم من القضية التهامية الممتدة منذ عهد الإمامة.

ولذا أليس غريبا هذا الاشعار من الدولة أن من يرفع السلاح ويفرض قوته، تحقق مطالبه بل وتستجدى موافقته ورضاه، ومن يسلك السلوك المدني وينهج المسار السلمي في مطالبه الواضحة والتي لا بس فيها ويقر بها العالم والجاهل، لا يأبه له ولا يلتفت إليه.

تفاءل التهاميون ولو على حذر من انعقاد الحكومة لأحدى جلساتها في الحديدة، ولكنها كانت مسكنات وهمية، كرست بإثبات لا يقبل الشك مدى الاستهانة بأبناء تهامة، ومن ذلك أنه تم الاتفاق مع الحكومة ممثلة برئيسها نفسه بتفعيل قانون السلطة المحلية، ووعد باسندوة أنه لن يتم أي تعيين لأي إدارة إلا من كفاءات أبناء المحافظة -وما أكثرهم- ولم تمض سوء أيام قلائل وصدر تكليف مدير لمكتب النفط من غير أبناء الحديدة، بل وشقيق وزير النفط، فلم كل هذه الاستهانة بأحرار تهامة وهل عجزت تهامة أن تنجب من تؤهله كفاءته على إدارة مكتب، وهكذا في جميع الوعود التي لم ينفذ منها شيء حتى الآن، ولن ينفذ. فالتهاميون يمكن الاستهانة بهم.

وعموما ما دعاني لكتابة هذا المقال بعد طول يأس وتوقف عن الكتابة، ما استجد من أحداث ليلة الجمعة الدامية المؤلمة لكل ذي ضمير حي، سقط العشرات من المصابين شيبا وشبانا صغارا وكبارا من الجنسين، شهيدان حتى اللحظة فارقا الحياة، وكثير من الأطفال والنساء والشيوخ يتلقون الإسعاف في مستشفيات المحافظة العامة والخاصة، كل ذلك بسبب هجوم همجي تضاربت الأنباء فيمن أمر به، يا الله ما أشجع قادتنا الأشاوس وما أجل وطنيتهم، ينهب جنود اللواء العاشر حرس جمهوري لأراضي البسطاء التهاميين في جميشة(قرية زراعية تبعد 16 كيلو عن مدينة الحديدة) ويجرفون أراضيهم ويهدمون بيوتهم جهارا نهارا وغصبا وعدوانا، ولا يحرك قادتنا الأبطال ساكنا فالمعتدى عليهم تهاميون فلا داعي للقلق، وعندما تستفز الحمية بضعة شباب وصيادين من تهامة على حقهم وصالح وطنهم في اقتياد سفينة تنهب خيرات الوطن بطريقة مخالفة للقانون مهلكة لثروة وطنية ومصدر دخل قومي، بعد طول مناداة وتبليغ عن هذه السفن المدعومة من بعض المتنفذين، ولما لم يجد صيادو تهامة المستضعفون مجيبا بسبب قوة ذوي النفوذ، ذهبوا مجبرين لسواحل القرن الأفريقي ليسدوا رمق أبنائهم، فكان السجن والإذلال والمهانة تستقبلهم في سجون أرتيريا وغيرها، ولكن هذه المرة امعنت السفينة المعنية في التجبر وحاولت دهس بعض قوارب الصيادين الذين استنجدوا بذوي الحمية من إخوانهم فهبوا لنصرتهم أولا، وحرصا على مصدر الدخل القومي للبلد ثانيا، وقاموا بكل بسالة واقتادوا السفينة المعتدية والمخالفة لقانون الاصطياد فكان دفاعا من جهة وحرصا وطنيا من أخرى -ومتى علم الاعتداء من أبناء تهامة المسالمين-، ولكن ذوي النفوذ ممن تربطهم المصالح الكبرى بهذه السفن جن جنونهم فإذا كانت الدولة بكل قدراتها لا تستطيع القيام بهذا الدور الوطني، أيفعله هؤلاء الشرذمة القليلون، ولم تمض سوى ساعات حتى نزلت تلك الحملة العسكرية المدججة بشتى واقوى ومختلف أنواع الأسلحة وتقصف حارتي اليمن والكورنيش، ليسقط شهيدين ويسعف العشرات من النساء والأطفال والشيوخ إلى المستشفيات جراء اصاباتهم بالطلقات النارية والاختناق، والمؤلم أن هؤلاء الأشاوس منعوا سيارات الاسعاف من الدخول لساعات في انتهاك صارخ وعمل لم نسمع به حتى من الكيان الإسرائيلي. كما أن ردة الفعل الغاضبة للمواطنين قادتهم في غلواء سخطهم إلى إحراق قسم النشي الواقع في تلك الحارة، فكانت الحصيلة الموجعة خسارة في أرواح الشعب وممتلكات الدولة. ولماذا؟! لأن الدولة لم تقم بواجبها المناط لمواطنيها في هذه المنطقة، وأطلقت يد المفسدين تعيث بها فسادا!

ولا أشك أن الأيام القادمة ستشهد حراكا أوسع وعنفا أشد، وذاك امر بل قانون طبيعي، خاصة أن العنف المقحم لم يكن مبررا، والعنف لا يولد إلا العنف، والمطالبين بحقوقهم قضيتهم عادلة، ولا مبرر لتجاهلها أكثر من ذلك، إلا أن كان هذا التجاهل متعمدا، لترسيخ مبدأ: ولكن تؤخذ الدنيا غلابا.

لست متمنيا لذلك حرصا على سلامة الوطن وأرواح أبنائه وسبق أن بينت تحذيري كثيرا من ذلك، ولكن الحقيقة: أن الزرانيق من أبناء تهامة أحفاد أزد شنوءة قد فاض بهم الكيل، وأعلنوا أن للصبر حدود، وقد بدأ الكثير منهم يستقبل تجاهل الدولة لقضيتهم أنها إشارات واضحة تدعوهم إلى انتزاع حقوقهم بكافة الوسائل، وبدأ مارد الثورة التهامية يستفيق، بل لعل البعض من مثيري الفتنة بدا بتغذيته، وإن كان ذاك فاستقرار الوطن الذي يسعى إليه المخلصون معرض للانهيار. والوقت المتاح سابقا في المعالجات لم يعد كذلك بل بدأ يضيق بقوة.

لذا ومن منطلق الحرص الوطني والضمير الإنساني، وحبا للبسطاء والمستضعفين في تهامة أتوجه بهذا النداء لكل من يهمه أمر اليمن واستقراره وتقدمه وخاصة رئيس الجمهورية ومن يليه رتبة ومحبة لليمن وأهله أقول:

أدركوا الوضع في تهامة الخير والسلام، ويكفي ما حصل في الجنوب الطيبة والمسالم أهلها عبرة، وأجد ضميري الوطني والإنساني يقترح عليكم المقترحات العاجلة الآتية:

-1 إيلاء القضية التهامية بعضا من اهتماماتكم الوطنية، وسرعة إلحاقها ضمن قضايا الحوار الوطني، فهي اجدر نقاشا وأجدى اهتماما من موضوع زواج الصغيرات، أو الأقلية اليهودية وغيره.

-2 تشكيل لجنة من قامات وطنية بصورة عاجلة للتحقيق في حادثة السفينة وإرهاب الدولة للأطفال والنساء والشيوخ، ومحاسبة كل من أخطئ في حدوث الخسائر المذكورة.

-3 تفعيل مبدأ السلطة المحلية في تهامة، فهي المحافظة الوحيدة التي لا يدير أبناءها مكاتبها، ولا وجود لهم يذكر في مكاتب الدولة خارجها.

-4 تجميد قرار تعيين مدير مكتب النفط من خارج المحافظة، وإصدار قرار بتعيين مدير من كفاءات المحافظة.

تلك أبرز المقترحات العاجلة وإلا فإن المطالب كثيرة تتماهى في انسجامها وقدم القضية وكارثية مظالمها، والله من وراء القصد.